# أبو نواس. التجديد في شكل ومضامين القصيدة العربية

## 1-ترجمة الشاعر:

أبو نواس الحسن بن هانئ فارسي الأم والأب أيضا. وقد التبس أمر أبيه على الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بني سعد العشيرة اليمنيين. وكذلك حين رأوا في أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين، ممّا جعل بعض الرواة يظن أنّ أباه من أهل الشام. والصحيح أنه كان مولى فارسيّا من موالي الجراح بن عبد الله الحكمي. والي خراسان لعهد عمر بن عبد العزيز. فانتظم في جند الخلافة، وقد نزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد. وهناك تعرّف على جارية فارسية تسمّى جُلّبان كانت تغزل الصوف وتنسجه، فاقترن بها ورُزقَ منها عدة أولاد. منهم أبونواس.

اختلف الرواة في السنة التي ولد فيها أبو نواس، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة. ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي أبوه، فنقلته أمه إلى البصرة، وقامت على تربيته، وسرعان ما دفعته إلى الكتّاب، فحفظ القرآن وأطرافا من الشعر، وتفتّحت موهبته، فأخذ يلهج ببعض الأشعار.

وشبّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزوّد من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين، فكان يذهب في العشي إلى المسجد يستمع من أبي عبيدة أخبار العرب وأيامهم، ويلتقط من أبي زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر.

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه: "كان عالما فقيها عارفا بالأحكام والفُتيا بصيرا بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه".

وطلب علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلّما ثم انتقل إلى نظم الشعر. وقد وصله هذا العلم بالثقافات التي كان يتصل بها المتكلمون. فأخذ من الثقافات الهندية، ولا شكّ في أنّ اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقا فقد كان فارسي الأصل. وكان يحسن الفارسية إحسانا بعيدا جعله يلوك كثيرا من كلماتها في أشعاره.

وفي خمرياته ما يدلّ دلالة واضحة على أنه وقف على طقوس المجوس، واليهود والنصارى وعقائدهم، وتفرّغ للنوادر وحفظ منها شيئا كثيرا. وكان خفيف الروح ظريفا ممّا جعله سميرا للخلفاء والوزراء.

لقد اجتمعت عناصر كثيرة اشتركت في تكوين طبيعة أبي نواس، فقد كان فارسيّا حاد المزاج وثقف كل الثقافات التي عاصرها من عربية وإسلامية ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية، وغرق في حضارة عصره المادية وفي آثامها وخطاياها.

**2-البيئة الأدبية والفكرية في العصر العباسي:**

عرف العرب في العصر الجاهلي، وكذا في بداية العصر الإسلامي، حياة مبنية على الفطرة والبساطة في كل نواحيها. ولكن بدأ شكل هذه الحياة يتغيّر مع تشكل ملامح الدولة الإسلامية المترامية الأطراف. وبلغ التطور والازدهار ذروته في العصر العباسي.

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن المحيط الهندي والسودان جنوبًا إلى بلاد الترك والروم شمالا. وكانت تضم أوطانا كثيرة، وتعيش فيها شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة، غير أنّها لم تكد تدخل في نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجًا قويا، ومضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي.

لقد تعلقت قلوب الشعوب المسلمة من غير العرب بالقرآن الكريم، فحرصوا على اتقان العربية لتذوّق معانيه، وملامسة حلاوته. فسارعت شعوب إيران، والعراق، ومصر وبلاد المغرب إلى تعلّم لغة القرآن الكريم والحديث النبوي. وبعد فتح هذه البيئات بنحو قرن نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها.

" وأقبل الفرس على التّعرّب إقبالا منقطع النظير فأكبّوا على تعلم العربية حتى أتقنوها فلا نكاد نتقدّم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم. فقد تألّق نجم أبي حنيفة في درس الشريعة الإسلامية، وسيبويه في جمع العربية وأصولها النحوية وابن المقفع في صناعة الكتابة، وبشار وأبي نواس في الشعر وغيرهم كثر".

ولأن الحياة البشرية وعلاقة الأمم، والحضارات فيما بينها مبنية على التأثر والتأثير فإن انفتاح الدولة الإسلامية على غيرها من الأمم المجاورة لها، والمنطوية تحت لواء الإسلام كان له أثره في مختلف أشكال الحياة الفكرية والثقافية، والاجتماعية.

وتحولت الثقافات العامة التي كانت مبثوثة في البلدان المفتوحة إلى العربية وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية.

وكانت الثقافة الهندية تصل عن طريق الفرس وما سقط إليهم منها وعن طريق من دخلوا منهم حديثا في الإسلام واندمجوا في عرب العراق.

وبالعودة إلى مظاهر الحياة العباسية يبدو جليّا الأثر الفارسي عليها فقد كانت الثقافة الفارسية أبعد تأثيرا في المحيط العباسي. ومردّ ذلك دخول جمهور الفرس في الإسلام واقتباس العرب كثيرا من صور حياتهم في المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم. وأخذوا يحكون عن أقاصيصهم وأخبار ملوكهم وحكمائهم.

وإذا كان الأثر الفارسي قد بدا واضحا في الحياة الاجتماعية، فقد كانت الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثّرت في الفكر العباسي، عن طريق النقل والترجمة وليس عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب. حيث لم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلاّ اختلاطًا محدودا عن طريق العبيد والرقيق البيزنطي الذي كان يقع في الأسر أو يباع في سوق النخاسة.

ازدهرت الحياة العقلية في العصر العباسي الأول (132هـ - 232هـ) ازدهارا كبيرا وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة في أثرها في العلم والثقافة. كانت الدولة مزيجا من شعوب كثيرة وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر هذه الثقافات.

ولعل ما يميّز الأثر الفارسي عن باقي الثقافات الوافدة هو التغلغل في جميع ميادين الحياة، فإذا كان الأثر اليوناني قد برز بشكل كبير في الجانب الفكري من خلال تأثر الفلاسفة العرب

بالفلسفة والمنطق اليوناني، وكذلك الأمر مع تأثر العلماء بالعلوم الهندية، فإن الأثر الفارسي كان واضحا في الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية.

كان النفوذ في دولة الخلافة للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشارا كبيرا على يد الوزراء وكتّابهم الفارسيين، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة، وانتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادرا عن عقليتين وثقافتين.

وتشكلت فئة من العلماء في عصر الازدهار العباسي أصلهم غير عربي فقد كان " رجال العلم في هذا العصر أكثرهم فارسيون حتى قال ابن خلدون: إنّ حَمَلَة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم. ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية.

توفرت في العصر العباسي الأول مجموعة من الظروف ساعدت كلها في أن تجد الثقافات الوافدة طريقها إلى فكر وحياة المجتمع العربي، فلقد كان رقي الذوق، وحياة التمدن، والتعطش للعلم، وكذا تشجيع الخلفاء على ترجمة ما يصل من نتاج الفكر الأجنبي، والرغبة في الاطلاع على علوم الحضارات المختلفة عوامل مهدت لأن لتشكيل مناخ ثقافي جديد.

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول وأحدثت أثرها في العقول والأفكار، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدّموا معاني للأدباء لم يكونوا يعرفونها. وفي العصر العباسي الثاني (232ه - 334ه) زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء.

لقد انتشرت في العصر العباسي ثقافات مختلفة نتيجةً لاختلاف السكان من حيث أصولهم وامتزاج بعضهم مع بعض في السكنى والتزاوج، ونمو الحضارة نموّا يستدعي علمًا واسعًا لكثير من شؤون الحياة، فإلى جانب الثقافة العربية الإسلامية ظهرت الثقافة الفارسية، والثقافة اليونانية والثقافة الهندية، كما كان هناك ثقافات دينية كاليهودية والنصرانية.

أ -الثقافة الفارسية: إنّ الأدب في كلّ عصر ظلٌّ الحياة الاجتماعية وقد ظهر أثر الثقافة الفارسية في مختلف ميادين الحياة العباسية وفي النواحي الاجتماعية والأدبية على وجه الخصوص، وكان مظهرها واضحا جليّا فالناس يتّخذون من مناسبات الفرس واحتفالاتهم أيّامًا يحتفلون بها، وأصبح القضاة وعظماء الدولة يلبسون القلنسوة كالفرس، تسرّبت بعض الألفاظ الفارسية إلى اللغة العربية، وانتشرت مجالس الغناء واللّهو، والشراب وهي مجالس الفرس. فهم ميّالون إلى الإفراط في الشراب والغناء وظهر ذلك مترجما في شعر تلك المرحلة.

وقد كان للفرس أثر كبير في الأدب العربي غير صفة اللهو والمجون، فكتبهم التي نُقلت من الفارسية إلى العربية (ككليلة ودمنة، وهزار إفسانة) أساسا من الأسس التي بُنيَت عليها الكثير من القصص العربية. " فقد عني المترجمون بترجمة العديد من الكتب الفارسية في التاريخ والأدب، فترجم عبد الله بن المقفع " كتاب خداينامه " وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم. كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية "كليلة ودمنة" وكتاب " التاج في سيرة أنوشروان " وكتاب " الأدب الكبير " و " الأدب الصغير "، وكتاب " اليتيمة ".

ولم يتوقف الأمر عند حدود الترجمة فقط، فسرعان ما ظهر نتاج أدبي مميّز أفرزته فئة من الأدباء بروح عربية فارسية فقد " كان كثير من الفرس الذين أتقنوا العربية، وتثقفوا الثقافتين الفارسية والعربية أنتجوا في الأدب العربي نتاجًا جديدا كالفضل بن سهل، وسهل بن هارون، وابن المقفع. كما نرى قوما من العرب تعلّموا الفارسية، ووجدوا فيها من الغذاء ما لم يجدوه في العربية، فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون في دراستها ثم يُخرجون أدبا عربيا، فيه معاني الفرس، وبلاغة العرب مثل " العتابي " الشاعر العباسي الذي تثقف بالثقافة الفارسية".

ب - الثقافة الهندية: عرف العرب الحضارة الهندية منذ العصر الجاهلي، وتعاملوا معهم من خلال التجارة، وكان العود من أهر السلع الوافدة من الهند " كما أولعوا بالسّيوف الهندية، وسمّوا السيف المطبوع من حديد الهند المهنّد. ولمّا فتح المسلمون فارس والعراق فكّروا في الهند، فتتابع المسلمون يغزونها ويصيبون منها المغانم حتى وجه الحجاج محمد بن القاسم الثقفي إلى الهند ففتح جزءا منها، وهو المسمى بالسّند سنة 91 ه، وقد غنموا مغانم كثيرة،

وسَبوا سبيا كثيرا. وأصبح الجيل السندي عنصرا من العناصر المكوّنة للأمة الإسلامية. وسرعان ما رأينا الموالي الذين جُلبوا من الهند، وغُنموا في الحرب نبغ منهم ومن أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدّثون. فمن الشعراء كان أبو عطاء السّندي. واشتهر من اللغويين ممّن أصله هندي ابن الأعرابي، ومن المحدثين أبو معشر نجيح السندي.

أثر الهنود في الثقافة الإسلامية من ناحيتين ناحية مباشرة باتصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التجارة ومن طريق الفتح الإسلامي، وناحية غير مباشرة بنقل ثقافتهم بواسطة الفرس، فقد اتّصل الفرس بالهنود اتّصالا وثيقا قبل الفتح الإسلامي فلمّا نُقلت الثقافة الفارسية إلى العربية نُقل جزء من الثقافة الهندية في ثناياها.

وقد عدّ المسلمون الهنود إحدى الأمم الأربع ذات الصفات الممتازة وهي: الفرس والهند والروم والصين. وقال الجاحظ فيهم: اشتهر الهند بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطّب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة.

لقد كان للهنود فلسفة، كما انتشرت لديهم ديانة البراهمة والبوذية. وقد أطال البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهند، كما توقّف عند مسألة تناسخ الأرواح التي يعتقدون بها. وقد عرف المسلمون هذه الفلسفة وهذه المعتقدات وناقشوها. كما اتّصل المسلمون بالهند في الرياضيات وأخذوا عنهم قبل أن يتّصلوا باليونان وكذلك الشأن في الفلك.

ولم يبتعد الأدب عن هذا التواصل الثقافي بل تأثر الأدب العربي ببعض التفاصيل الهندية " فعُرِّبت ألفاظ هندية، ودخلت آراء في الأدب والبلاغة نُقِلت إلينا عنهم. كما نُقِلت العديد من القصص الهندية، وقد أولع العرب بها من ذلك قصة السندباد. كما أن في كتاب ألف ليلة وليلة قصصا دلّ البحث العلمي أن أصلها هندي. كما نُقلت إلى العربية الكثير من الحِكم الهندية التي تتّفق والذوق العربي. وقد كانت هذه القصص والحِكم عنصرا هامّا من عناصر الأدب العربي.

ج- الثقافة اليونانية: تمت الإشارة في موضع سابق إلى أنّ أثر الثقافة اليونانية لامس الجانب الفكري، خاصة وأنّ العرب في ذلك الوقت عرفوا عصر تدوين العلوم العربية، فتسرّبت الثقافة اليونانية إليها وصبغتها صبغة خاصة، كان لها تأثير كبير في الشكل والموضوع.

فأما الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليوناني فقد صبغ العلوم العربية صبغة جديدة صبّت في قالبه، فقد تتابع المترجمون يترجمون الكتب المنطقية. وقد كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي فقد اصطبغت طريقة الجدل والبحث والتعبير بأساليب المنطق، وأصبحت الكتب ترتّب وتقسّم ترتيبا، وتبويبا منطقيا.

وأما في الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير في الفلسفة العربية الإسلامية

كما انتقلت بعض آثار الثقافة اليونانية إلى النواحي الاجتماعية في المجتمع العربي نتيجة امتزاج الجنسين العربي واليوناني الروماني فقد كان هؤلاء الرومان يعيشون بين العرب، ولهم عادات وتقاليد وأفكار وآراء في نظام الحكم ولهم فنون من غناء وتصوير وما إلى ذلك، فكان العرب يقتبسون ما تيسّر لهم، كما تأثر الأدب العربي بالثقافة اليونانية فنجد ألفاظا يونانية عُرّبت، وقصص يونانية نُقلت إلى العربية إلى جانب كتب في التاريخ وفي مجالات مختلفة. كما تُرجمت حِكم نُسِبَت إلى فيثاغورس وسقراط، وأفلاطون وأرسطو. إلى جانب كتب الفلسفة والمنطق. ولكنّ تأثير اليونان كان عميقا في الفلسفة والعلوم الرياضية والطبية، ضيّقا خفيفا في الناحية الأدبية.

**3-مظاهر التجديد في شعر أبي نواس:**

ساهمت مختلف العوامل النفسية، والبيئية في تكوين أبي نواس فكان من أعاجيب عصره في الشعر، إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة، وهي ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة. حتى قال الجاحظ: ما رأيت أحدا أعلم باللغة من أبي نواس وأضاف إلى هذا العلم علما دقيقا بقوالب الشعر الجاهلي والإسلامي وما صارت إليه عند بشار وأضرابه من أوائل العباسيين، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو في اتجاهين:

1-اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة دون أن يشتط في التجديد.

2-واتّجاه يجدّد فيه تجديدا واسعا، يجدّد في معانيه وألفاظه.

ويمكن أن نسلك في الاتجاه الأول مدائحه وأراجيزه ومراثيه، بينما في الاتجاه الثاني أهاجيه وغزلياته، وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه ولهوه.

فكان يحتفظ فيه بمقدماته القديمة وله في ذلك قلائد بديعة. مثل ميميّته في الأمين:

**يا دار ما فعلتْ بك الأيام لم تُبق فيك بشاشة تُسْتام**

ويلاحظ أنه لم يكن يطيل في وصف رحلته في الصحراء، وأنه يتعمّق في المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين.

وكان له حس دقيق وذوق مرهف، يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشقها وأخفها في النطق وأحلاها في السمع، وكان يدنو في ذلك حتى يمس شغاف القلوب، إذ كان يحسن اختيار أسهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجري على ألسنة الناس في حياتهم اليومية. ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء.

وقد حاول أبو نواس التجديد في الهجاء، والغزل والمجون. وكانت أهاجيه نوعان:

-نوع تمسّك فيه بالأوضاع التقليدية، حين يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين.

-ونوع كان يجري فيه في نفس الدروب التي مهّدها من قبله بشار، من ملامح الشعوبية. ولكنّ شعوبية أبي نواس ليست كشعوبية بشار. ذلك أنّ أبا نواس لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجري فيها من خمر ومجون، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار. كقوله:

**عاج الشّقي على رسم يُسائله وعُجت أسأل عن خمّارة البلد**

**يبكي على طلل الماضين من أسد لا درّ دَرُّك قل لي من بنو أسد؟**

ولأبي نواس غزل كثير في المرأة والغلمان، وأروع ما له من غزل في المرأة ما نظمه في جنان، إذ يعبّر فيه عن مشاعر صادقة كقوله:

**يا قمرا أبصرتُ في مـأتم يندب شجوا بين أترابِ**

**أبرزه المأتم لي كـــارها بـرغم دايات وحجّاب**

**يبكي فيُذري الدُّرَّ من نرجس ويلطـمُ الوردَ بعنّاب**

ويتّسع الفحش في غزل أبي نواس الشاذ بالغلمان، ليصبح وصمة في جبين عصره. وأبو نواس أستاذ فن الخمرية في الشعر العربي، فقد عاش للخمر يتغنّى بها، مجاهرا بالفسوق والمجون. فإذا بالخمرية عنده تتكامل صورتها وتُفرد لها القصائد والمقطوعات وتصبح فنّا مستقلاّ. له وحدته الموضوعية. ومّما يبرز من مظاهر التجديد في اللغة:

-اعتماد اللغة السهلة، واللينة المتداولة في الحديث اليومي، والابتعاد عن الألفاظ الغريبة.

-الحرص على بقاء اللغة حية، ومناسبة باختلاف الزمن والمكان.

أما فيما يخص التجديد في بناء القصيدة فقد رفض أبو نواس اتّباع النمط الشعري القديم في أغلب قصائده، ودعا إلى اتّباع نمط شعري جديد تميّز بالوحدة الفنيّة، حيث تقوم القصيدة على مجموعة من العناصر أهمها وحدة الموضوع.